الحادثة العظيمة

إعداد: مجيد مُحَمَّدي
رسوم: هدى حداد

أنهَى النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله) حجّه، وتحرّك والحجيج في الساعات الأخيرة من الليلة الرابعة عشرة من ذي الحجة نحو المدينة المنورة. وسلك النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله) سبيلاً إلى المدينة غير الذي أتى منه، فهذه كانت عادته الدائمة. إذ كان يسلك طريقاً في ذهابه إلى مدينةٍ أو ناحيةٍ، ويرجع من طريقٍ أخرى. لعلّه كان يريد من عمله هذا رؤية عددٍ أكبر من الناس، والاطّلاع على أحوالهم، وما يجري عليهم.

منذ اليوم الرابع عشر إلى السابع عشر من ذي الحجة، كان لا يزال النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله) والمسلمون يسلكون طريق المدينة. إلى أن وصلت القافلة إلى الجحفة عند طلوع صبح اليوم الثامن عشر. عند الجحفة، كان يوجد بركةٌ مليئة بالمياه، يُقال لها غدير خمّ. نزل الذين كانوا يتقدمون القافلة إلى جانب البركة، وركض المترجّلون نحوها كي يُلقوا بالماء على رؤوسهم ووجوههم.

كان الغدير محلّ افتراق أربعة سبلٍ أصلية في الحجاز. فهذا المكان كان طريقاً لعبور القوافل الكبيرة والمهمّة وأيضاً كان محلّ افتراقها عن بعضها. أما هذه السّبل الأصليّة فهي: مصر، العراق، المدينة، ونجد. وهكذا، كان يتوافد الحجيج على البركة مجموعاتٍ مجموعاتٍ، ويتبادلون الورود عليها. عندما وصل النبي(صلّى اللهُ عليه وآله) إلى البركة، توقف عندها. بدت عليه حالةٌ عجيبة؛ لقد نزل جبرائيل برسالةٍ مهمّةٍ إلى النبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله) من قِبل الله سبحانه وتعالى. صاح عددٌ من الرجال: «**توقّفوا بأمرٍ من رسول الله(صلّى اللهُ عليه وآله)**».

ارتفعت همهمةٌ بين المسلمين، وصهلت الأحصنة، وعجّت الجمال، وتصاعد الغبار من الصحراء. توجّه المسلمون من بعيدٍ وقريبٍ نحو البركة. وانطلقت مجموعةٌ على أحصنتهم نحو مسير المدينة كي يُرجعوا من كان قد تقدّم على القافلة. فهنالك خبرٌ مهمٌ يريد النبي (صلّى اللهُ عليه وآله) إبلاغه للجميع.

في النهاية، اجتمع الحجيج حول البركة. كان الوقت ظهراً، والشمس تسكب حرارتها على رؤوسهم ووجوههم بشدّة. والأرض لم تترك أقدامهم بأمانٍ، وكأنّها تُحرقهم. ممّا اضطر الحجيج أن يُلقوا طرفاً من عباءاتهم على وجوههم، والطرف الآخر تحت أقدامهم. قام عددٌ من الشبّان بوضع رُحل الجمال فوق بعضها. صعد النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله) بهدوءٍ على رحل الجمال، ونادى عليّاً من هناك.

- **يا عليّ، اصعد أنت أيضاً!**

التفت الذين كانوا في الصفوف الأولى إلى عليّ: سلمان، عمر، المقداد، عثمان، أبو بكر و...

- **لماذا يا ترى؟!**

صعد عليٌّ الرّحل، ووقف إلى يمين النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله).

انحبست الأنفاس في الصدور. عندما فتح النبي(صلّى اللهُ عليه وآله) ثغره ليتكلّم، كانت الصّحراء كأنّها تسمع صوته أيضاً.

حمد الله وأثنى عليه، ثم بدأ خطبته:

- **يا أيّها النّاس،**

انتشرت همهمةٌ خفيفة بين الجموع الغفيرة. قال عدّةٌ من الناس: «**نشهد**»

- **أتشهدون أنّه لا إله الا الله، وأنّ محمداً عبده رسول الله؟**

- **نشهد بذلك.**

- **إلهي، فاشهد.**

ثمّ خاطب الجموع الحائرة قائلاً: **«يا أيّها النّاس أتسمعون صوتي؟»**

ارتفعت الأصوات من أربعة جهاتٍ: **«بلى، بلى يا رسول الله»**.

- **«ألا وإنّي قد تركت فيكم أمرين، إنْ أخذتم بهما لن تضلّوا : كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فإنّه قد نبّأني اللّطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. ألا فمن اعتصم بهما فقد نجا، ومن خالفهما فقد هلك. ألا هل بلّغت؟**

- قالوا: **نعم**.

خيّم صمتٌ مهيبٌ على الجموع، لم ينطق أحدٌ بأيّ شيءٍ، وكأنّ شفاههم قد خيطت. نسي الحجيج حرّ الصحراء ولهيب الشمس. ما هذا الذي يسمعونه؟ وإذ بالنبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله) يرفع يد عليٍّ إلى فوق رأسه، ويصبر لحظاتٍ قليلة. كان الجميع يحدّق بهما جيداً.

- **يا أيّها الناس، من منكم أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**

قال البعض: **«الله ورسوله أعلم!»**.

تابع رسول الله بطمأنينةٍ ووجهٍ ينبعث بالضياء...

كرّر رسول الله هذه الجملة ثلاث مرّات. اكتفت الجموع بفتح أفواهها وجحوظ أعينها، وكأنّها لم تستطع إخراج أنفاسها من صدورها.

اللهمّ، والِ من والاه وعادِ من عاداه... يا أيّها النّاس، فليُسمع الحاضر مقولتي للغائب...».

بعد ذلك أنزل النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله) يد عليٍّ. وبعد برهةٍ، التفت إلى الجموع، وتلا آيةً قد نزلت جديداً: **{اليوم أكملت لكم دينكم وأتممتم عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً}** (المائدة:٣)

نزل النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله) وعليٌّ عن الرحل. كان لا يزال صمتٌ ثقيلٌ يموج في عيون الحاضرين. عندها قام حسان بن ثابت شاعر النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله)، وتلا شعراً جميلاً حول اختيار عليّ للخلافة.

نظر النبيّ (صلّى اللهُ عليه وآله) إلى عليٍّ بحنانٍ، وقال لحسّان: **«يا حسّان، طالما أنّك تنصرنا بلسانك، فسوف يؤيّدك الله بروح القدس»**.

تقدّم أبوبكرٍ خطوةً عن الجميع، وبارك لعليٍّ الخلافة، ثمّ تبعه عمرٌ وعثمانٌ وطلحة والزبير وبايعوا عليّاً والنبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله). وفجأةً، تهاوى النّاس من كلّ حدبٍ وصوبٍ لمبايعة عليّ. كادت القلوب تطير من مكانها. وامتدّت الأيدي نحو عليٍّ كالحمائم البيضاء.

قال عمر لعليٍّ: **«بخٍ بخٍ لك يا عليّ؛ لقد أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة»**.

كان غروب شمس انفصال النبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله) عن القوافل قد بدأ يقترب. عندها تذكّر الكثير من الآتين من العراق، مصر، ونجد، أنّه ربما لن يروا النبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله) بعد الآن. فظلّل غمٌّ وحزنٌ شديدان العيون الناظرة إليه. وغصّت الحناجر عندما أرادوا توديعه. ابتعدت القوافل عن النبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله)، وانطلقت تشقّ مسيرها. وفي النهاية، حان الوقت لينطلق أهل المدينة مع النبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله) نحو المدينة.

وصلت قافلة المدينة إلى ذي الحليفة عند وقت العشاء من اليوم الثالث والعشرين لذي الحجة. بات الحجيج ليلتهم هناك، وتابعوا مسيرهم نحو المدينة عند الصباح. كانت المدينة تنتظر خطوات الحجيج الذين أحضروا معهم هديةً كبيرة بعد أن حجّوا الحجّ الأكبر برفقة النبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله). بدأت رؤوس أشجار النخيل وجدران المدينة البيضاء تظهر شيئاً فشيئاً. أسرعت الجمال والأحصنة في خطواتها وحتى المترجّلون. كبّر النبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله) ثلاث مرّاتٍ بصوتٍ مرتفع. فبعد مُضي شهرٍ كاملٍ، ها هي المدينة تفتح ذراعيها له ولمن معه. تقدّم مجموعة من الفرسان من ناحية المدينة لاستقبالهم. أحدهم أبو دجانة الأنصاري الذي بقي طوال هذه المدّة في المدينة بأمرٍ من النبيّ(صلّى اللهُ عليه وآله) لكي يمسك بزمام أمورها بشكلٍ مؤقّت.